٦ ـ الإسلام والفنون الجميلة

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

لم يرد فى القرآن الكريم نص صريح يحرم استعمال الذهب والفضة والحرير، وجميع الآيات التى تتعلق بهذه الأشياء إنما تشير إلى أنها مما سيتمتع به المتقون يوم القيامة عندما يسكنون الجنة ويلبسون الحرير ويتحلون بأساور من ذهب وفضة؛ ولكن ورد فى كتب السنة أحاديث عدة تنظم استعمال هذه الأشياء. بعضها يحرمها وبعضها يحللها بحسب الظروف المختلفة. والملحوظ فى التحريم على كل حال هو الرغبة الصادقة فى الحيلولة بين الرجال وبين الانغماس فى النعيم، حتى يظلوا متمسكين بعادات البداوة والخشونة ولا يفقدون شجاعتهم وحميتهم. ولقد كان فى تلك الإباحة وهذا التحديد أو التحريم غنم كبير للفنون الجميلة يتجلى لنا فيما أبدعه المسلمون من المنسوجات ومن الحلى والأوانى

صورة بجمة تمثل عقاباً من البرنز من الدولة الفاطمية ـ نقلا عن كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ـ راجع البحث المنشور فى العدد ٥٣٧ من هذه المجلة

أما الحرير فله فى تاريخ الحضارة قصة شيقة ساهم المسلمون فيها بأوفى نصيب، فقد كان إنتاجه سراً مغلقاً لا يملك مفتاحه غير الصينيين. واستطاع الأمبراطور جستنيان فى سنة ٥٥٦ م أن يقف على هذا السر، وأصبحت بيزنطة منذ ذلك التاريخ من أهم مراكز إنتاج الحرير ونسجه. واقتصر استعمال المنسوجات الحريرية فى أول الأمر على النساء؛ ولكن رجال الدولة الرومانية اتخذوا ملابسهم من الحرير. وعند ما ظهر الدين المسيحي ورأى رجال الكنيسة أن فى استعمال هذه الملابس ترفاً لا يقره الدين ولا سيما وقد كانت أثمان هذه الملابس مرتفعة إلى حد بعيد ابرزوا لمقاومة انتشارها وأعلنوا حرباً شعواء عليها، ولكنهم فشلوا فى حملتهم، وتغلبت روح الترف على الناس فأقبلوا على اقتنائها. وجاء الإسلام فلم يشأ أن يقف جامداً أمام هذه المشكلة، بل نظم استعمال الملابس الحريرية تنظيما كان له أبعد الأثر فى الفن، إذ وردت فى كتب السنة أحاديث عدة أباحت الحرير للنساء إطلاقاً من غير قيد ولا شرط، وحرمته على الرجال إلا لضرورة. أو كان الثوب مشتملاً على قدر أصبعين أو أربع أصابع من الحرير ـ وعلى أساس هذه الإباحة ازدهرت طريقة الزخرفة المسماة بالتابستري Tapestry، وكانت المنسوجات التى تزين بهذه الطريقة تنسج بالطريقة العادية للنسيج أى تقاطع خيوط اللحمة بخيوط السدى حتى إذا وصل النساج إلى النقطة المراد زخرفتها أوقف عملية الحشو بخيوط اللحمة وأخذ فى عمل الزخرفة بخيوط من الحرير المختلفة الألوان

فترى الثوب وقد ازدان بشريط من الحرير يتضمن زخرفة مدهشة تدل دلالة واضحة على مدى ما بلغه المسلمون من الخبرة الواسعة بالأوضاع الزخرفية والأساليب الفنية والمقدرة الفائقة على اختيار الألوان ، حتى أن الإنسان لا يدرى أموضع السحر فى هذه المنسوجات دقة الزخرفة أم التناسق بين الألوان أم جمال الحرير وقد نسج وسط الكتان ؟ ولقد كانت هذه الطريقة متمشية مع ما أقره الفقه الإسلامى ، وإن كان الفاطميون قد تساهلوا فيها فى أواخر عهدهم فزادوا فى مساحة أشرطة الزخرفة المنسوجة من الحرير عن النسبة المقررة شرعاً

وفى ظل الإباحة المطلقة للنساء تقدمت صناعة نسج الحرير وراجت رواجاً عظيماً ، وأصبح فى متناول معظم الناس بعد أن كان قاصراً على الحكام والأمراء قبل الإسلام ، وتسلم المسلمون زعامة تجارته فى العصور الوسطى ، وكان لهم فضل إدخاله فى صقلية والأندلس

أما الحلى المصنوعة من الذهب فقد نشط الصناع المسلمون فى صياغتها ، وتفننوا فى صنعها ، وأتوا فيها بالبدع المدهش ، والأمثلة القليلة التى عثر عليها فى أطلال الفسطاط — أقدم

محن من الخزف ذى البريق المعدنى من الدولة الفاطمية — نقلا عن رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية للمرحوم الأستاذ « حسن الهوارى »

العواصم الإسلامية فى مصر — من خواتم وأساور وأقراط خير دليل على ذلك . ولو لا أن الحلى الذهبية من الأشياء التى تصهر ويعاد صنعها فى العصور المختلفة لوصلت إلينا نماذج كثيرة تكشف عن مهارة المسلمين فى هذه الناحية

أما اتخاذ الأوانى من الذهب والفضة فقد حرم بنص الأحاديث المختلفة ، ولكن هذا التحريم كان فى الواقع سبباً مباشراً فى اهتداء الفنان المسلم إلى طريقة استطاع أن يوفر بها

شمعدان من نحاس أصفر مكفت بالذهب والفضة مؤرخ ٦٦٨هـ من فهرس مقتنيات دار الآثار العربية للمرحوم مكس هرتس بك

للأوانى الخزفية جمال الذهب وبريقه فتوصل إلى صنع الخزف ذى البريق المعدنى . ولحسن الحظ قد وصلت إلينا من هذا الخزف أمثلة كثيرة تسابق إلى اقتنائها المتاحف والهواة فى الشرق وفى الغرب . وفى الحق أن هذه الأمثلة قد امتزجت فيها دقة الصانع بعبقرية الفنان فأبدعا معاً هذه التحف التى يستمتع الآكل فيها بجمال الذهب ورونقه ويرتاح ضميره — إن كان مسلماً متمسكاً بالدين — إلى إتباع أحكام الدين وطاعته

هذا وقد اهتدى المسلمون تحت ضغط هذا التحريم إلى طريقة تطعيم أوانى النحاس بالذهب والفضة فجعل من الأوانى المنزلة بالذهب وبالفضة أو بهما معاً تحفاً رائعة لها من الجمال الفنى والذوق السامى ما تتضاءل بجانبه الأوانى المتخذة من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة .

(يتبع)

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية